مقدمة

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على البشير النذير وصحبه وأتباعه ما أورق الزهر وفاح العبير.

أما بعد فهذه أوراق عنوانها « وقفات مع سورة التوبة » تحدثت فيها عن الجهاد وغزوة تبوك ودروس وعبر من خلال بعض آيات هذه السورة العظيمة.

كل ذلك بإيجاز شديد فليس المقام مقام إسهاب، واشكر المولى جلت قدرته على توفيقه وامتنانه وتيسيره أولاً وأخيراً، وما عملي إلا بضاعة مزجاة وجهد المقل، ولكن عسى الله أن يجعله مباركاً مخلصاً. وقديما قيل:

لا ترج شيئاً خالصاً لك نفعُهُ ❋ ❋ فالغيثُ لا يخلو من العّيث

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

تمهيد

الجهاد وحكمته ومشروعيته

أ- الجهاد في سبيل الله.

ويسمى: القتال أيضاً .. هو في اللغة: محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل⁽¹⁾ وجهد طلبَ حتى وصل إلى الغاية وبلغ المشقة⁽²⁾ أما القتل في اللغة فهو الإماتة⁽³⁾.

وأما تعريف الجهاد في الشرع: فهو قتال الكفار لإعلاء كلمة الله والمعاونة على ذلك⁽⁴⁾ وقد يطلق الجهاد في النصوص الشرعية على غير قتال الكفار كما قال ﷺ: « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله » .. الحديث⁽⁵⁾ ولكنه عند الإطلاق يراد به قتال الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى.⁽⁶⁾

---

(١) لسان العرب (١/ ٧٠٨-٧٠٩).

(٢) المعجم الوسيط (١/ ١٤٣).

(٣) القتال في الإسلام (١١).

(٤) أهمية الجهاد ص ١١٦، القتال في الإسلام ١٣، فتح الباري (٦/ ٣).

(٥) رواه أحمد وابن حبان وسنده جيد قاله الأرنئوط في تحقيقه لزاد المعاد (٣/ ٦).

(٦) أهمية الجهاد ص ١١٧، زاد المعاد (٣/ ١١) للاستزادة

ب- حكم الجهاد:

فرض كفاية لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾(١).

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢). وقوله: ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾(٣).

وبعض العلماء يقسم الجهاد إلى قسمين:

١-جهاد الطلب والابتداء وهو تَطلب الكفار في عقر دارهم ودعوتهم إلى الإسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام وحكم هذا فرض على جموع المسلمين.

٢- جهاد الدفاع وحكمه: فرض عين على المسلمين عموماً حتى يندفع شر الأعداء وهذا بإجماع علماء الإسلام(٤).

ج- مراحل القتال التشريعية(٥):

١- كونه في مبدأ لأمر محرماً على المسلمين.

٢- كونه مأذوناً به فقط من غير إيجاب.

٣- كونه واجباً على من قاتل المسلمين.

٤- كونه فرضاً على المسلمين على عموم الكفار.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٤) منار السبيل (١/ ٣٨٣) أهمية الجهاد ١٣٤ وما بعدها، زاد المعاد (٢/ ١٢).

(٥) أهمية الجهاد ١٣٦ وما بعدها.

د- مكانة الجهاد في الإسلام:

الجهاد في الإسلام عبادة عظيمة، من أفضل القربات إلى الله وأكثرها أجراً ومثوبة، كيف لا وبسببه تقوى ركائز الدعوة الإسلامية، وينشط أهلها وتتعمق في الأرض جذورها، وهو الذي يجعل أعداء الحق يخضعون لسلطان الله فيتركون المسلمين يؤدون عبادتهم ويقيمون دولتهم وينشطون في دعوة الآخرين إلى الله ورسوله⁽¹⁾.

ومما يدل على مكانته وأهميته هذه الآيات والأحاديث:

١ – قال تبارك وتقدس: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١١١)﴾[2]

٢ – وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (١٠) تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١) يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٢)﴾[3]

---

(١) القتال في الإسلام ص٤٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.

٣- وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾(١)

٤- وقال ﷺ: « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف »(٢).

٥- وقال ﷺ: « من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزوٍ مات على شعبة من نفاق »(٣).

٦- وقال ﷺ: « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جَرَى عليه عملُه الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه، وأمِنَ الفتَّان »(٤).

هـ- أهداف الجهاد وغايته(٥):

للجهاد أهداف وغايات عديدة أسماها:

١- تعبيد الناس لله وحده وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد وإزالة الطواغيت كلها من الأرض لأن خضوع

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) أهمية الجهاد ص١٥٨ وما بعدها.

البشر للبشر وتقديم أنواع العبادة لهم إفساد للأجيال المتعاقبة على مر العصور وتعاقب الدهور كيف لا والله تبارك وتقدس يقول: (١)

٢- رد اعتداء المعتدين على المسلمين لقوله جل وعز: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾(٢)

٣- إزالة الفتنة عن الناس لِيسرىَ في قلوبهم النور الخالد من غير ما عائق، والفتنة ثلاثة أنواع:

أ- التعذيب ومضايقة المسلمين ليرتدوا عن دينهم.

ب- الأنظمة والقوانين الشركية والفساد الذي تسببه في شتى مجالات الحياة.

ت- فتنة الكفار أنفسهم لغيرهم بما يقيمونه من مناهج تُفسد فِطَرَ الناس وعقولهم.

هذه الأهداف مردودها عام على المسلمين وعلى غيرهم، وثمتَ أهداف تعود على المسلمين أنفسهم ألا وهي:

أ- تمحيص المؤمنين أنفسهم من ذنوبهم، وتطهيرهم من خطاياهم.

ب- تربية المؤمنين على الصبر والشجاعة والبذل والطاعة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

أَمَا وقد رأينا هذه الأهداف السامية والغايات السامقة، فإننا لَنَقِفُ متسائلين باندهاش أين المغرضون وأعداء الدين من هذه الأهداف؟؟

« لقد جرت عادة الإفرنج أن يُعبروا عن كلمة الجهاد بالحرب المقدسة إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم، وقد فسروها تفسيراً منكراً وتفننوا فيه، وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني المموهة بحيث إذا سمع البعض كلمة الجهاد تمثَّل صورة مواكب من الهمج المحتشدة، مصلتةً سيوفها، متقدةً صدورها بنار التعصب والغضب، متطايراً من عيونها شرر الفتك والنهب، عاليةً أصواتها بهتاف: الله أكبر زاحفةً إلى الأمام ما إن ترى كافراً حتى مسك بخناقه وتجعله بين أمين إما أن يقول لا غله غلا الله فينجو بنفسه وإما أن يضرب عنقه فتشخب أوداجه دماً.

وإن تعجبْ فعجبُ حملاتهم وغاراتهم على شعوب آمنة وادعة لا ذنب لها إلا أن أنعم الله عليها بمعادن وكنوز وخيرات في أرضها »(١).
وبعد هذا كله يدعون إلى الإنسانية والوطنية وإلى زمالة الأديان وإلى التعايش السلمي في العالم وليمسخوا كل معلم جهادي يبقى صغر أو كبر وهنا نقول بملء أفواهنا:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها ❋ ❋ ❋ بيناتٍ أصحابها أدعياء

ولقد صدق فيهم قول القائل: رمتني بدائها وانسلّت

---

(١) الجهاد في سبيل الله ص١ بتصرف.

إن الإسلام تَجَنَّبَ لفظة الحرب وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى القتال في اللغة العربية، واستبدل بها كلمة الجهاد التي تؤدي معنى بذل الجهد والسعي، فلماذا استعاض بها الإسلام عن الكلمات القديمة الرائجة؟ إنَّ ما يُجزم به – والله أعلم – بأن سبب ذلك هو أن لفظة الحرب كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يَشب لهيبه وتَستعر ناره بين الرجال أو الشعوب لمآرب شخصية ليس فيه رائحة الفكرة أو الانتصار لمبدأ. وبما أن القتال المشروع في الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب لم يكن بد من ترك لفظة الحرب، فالإسلام لا يهمه الاستيلاء على الممالك وإنما يهمه سعادة الشعوب، واستعلاء فكرته، وتعميم منهاجه⁽¹⁾.

فالبداية كانت من التسمية، فما أعظم هذا الدين عندما يقطع الطريق على خصمه من أوله.

إن الجهاد الإسلامي ليس بجهاد عديم الغاية بل هو جهاد في سبيل الله، جهاد في الله، ولله، وبالله، لا شجاعة ولا حمية، ولا طلباً للمغنم، بل لهدم بنيان النُّظم المتناقضة، والمناقِضة لمبادئه، ولإقامة الشرائع الإسلامية مكانها « وقد تميز الجهاد الإسلامي بأنه يقف عند انتهاء سببه الموجب له إما بقبول الدعوة والدخول في الإسلام إيماناً به واختياراً له، وإما بضمان مصالحة وأمان يفرضه عهد موثق، يستوجب

---

(١) الجهاد في سبيل الله الصفحات: ١٠ – ١٢ بتصرف.

عدم الوقوف في طريق الدعوة وعدم الاعتداء عليها، وعلى القائمين بها والداعين إليها ».

ثم إن إسلامنا العظيم وضع ضوابط أخرى للمقاتلين وقائدهم فقد بوَّب العلماء في مصنفاتهم أبواباً في هذه الموضوع⁽¹⁾ وأدَّب المقاتلين بآداب عدة فأمرهم بطاعة القائد في غير معصية، ونهاهم عن الغدر والمُثلة والغلو وقتل الصبية والنساء والمسلمين إلى آخر تلك الآداب العظيمة التي لو ذهبنا نسوق النصوص فيها لطال بنا المقام فلو كان الجهاد كما زعموا وشوهوا لما وضعت له هذه الضوابط ولكن ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾⁽²⁾.

وعلى حد قول القائل:

فقلْ للعيونِ الرُّمدِ إياكِ أنْ تَرَيْ
سَنَا الشمسِ فَاستَغْشي ظَلاَم اللياليا

---

(١) انظر فتح الباري ٦/ ١٨٣، فقه السنة ٣/ ١٤٧ وما بعدها، افتراءات حول غايات الجهاد ص ٣٤ وما بعدها تحت مبحث: مبادئ تحكم كيفية القتال الإسلامي، نيل الأوطار، باب الدعوة قبل القتال ص ٣٤ والأبواب بعده ص ٣٤٥ – ٣٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤١.

خاتمة متألقة للإمام الشاطبي(١):

إن النفوس محترمة محفوظة، ومطلوبة الإحياء بحيث إذا دار الأمر بين إحيائها وإتلاف المال، أو إتلافها وإحياء المال كان إحياؤها أولى، فإن عارض إحياؤها إماتة الدين كان الدين أولى، وإن أدى إلى إماتتها كما جاء في جهاد الكفار، وقتل المرتد، وغير ذلك ..

---

(١) الموافقات للشاطبي (٣/ ٣٩) كما في القتال ص ٤٥، وانظر كتاب افتراءات حول غايات الجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين، فهو قيم.

الفصل الأول

مختصر لأحداث غزوة تبوك

أولاً: سبب غزوة تبوك.

١- اختلف أهل السيرة في سبب هذه الغزوة، فذكر ابن سعد وشيخه وغيره قالوا: بلغ المسلمين من الأنباط الذين يحملون الزيت يَقْدمون به من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً وأجلبت معهم لَخْمَ وجذام وغيرهم من مُتنصِّرةِ العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج إلى تبوك(١).

٢- وروى الطبراني: من حديث عمران بن حصين قال: كانت النصارى نصارى العرب كتبت إلى هرقل إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجل من عظمائهم يقال له قَبَاذ وجهز معه أربعين ألفاً فبلغ النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام فقال يا رسول الله هذه

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٣٩) من معين السيرة ص ٤٣٥، التاريخ الإسلامي (٢/ ٣٥٣).

مئتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومئتا أوقية، قال فسمعته يقول لا يضر عثمان ما عمل بعدها⁽¹⁾.

٣- وذكر أبو سعيد في شرف المصطفى، والبيهقي في الدلائل بسنده عن عبد الرحمن بن غرم إن اليهود قالوا يا أب القاسم إن كنت صادقاً فالحق بالشام فإنها أرض المحشر وأرض الأنبياء فغزا تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى الآيات من سورة بني إسرائيل⁽²⁾ : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ ﴾⁽³⁾.

٤- وقال ابن كثير عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٣ ﴾⁽⁴⁾.

---

(١) انظر فتح الباري (٨/ ١٣٩).

(٢) انظر فتح الباري (٨/ ١٤٠).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٦، قال الشوكاني، قال ابن كثير: وفي هذا الإسناد نظر، فتح القدير (٣/ ٢٤٩).

(٤) البداية والنهاية (٥/ ٣) والآية من سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

قال صالح الشامي: يبقى ما اعتمده ابن كثير هو السبب المعقول وهو الدعوة إلى الله تعالى(١) هذا وقد أطبق أهل العلم على أن هذه الغزاة كانت في شهر رجب من سنة تسع للهجرة(٢).

ثانياً: بعض الشواهد على مفاجأة الرسول للأعداء:

عن الصعب بن جَثَّامة أن رسول الله ﷺ سئُل عن أهل الدار – أي المنزل – من المشركون يُبيتون فيُصاب من نسائهم وذراريهم قال: « هم منهم »(٣).

قال أحمد وإسحاق: لا بأس أن يُبيَّتَ العدو ليلاً(٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارُّونَ وسبى ذريتهم وأصاب يؤمئذ جويرية رضي الله عنها(٥).

---

(١) من معين السيرة ص: ٤٣٥.

(٢) فتح الباري (٨/ ١٣٩)، زاد المعاد (٣/ ٥٢٦).

(٣) رواه الشيخان.

(٤) نيل الأوطار (٧/ ٢٦٠) وانظر فقه السنة (٣/ ١٦٥-١٦٦).

(٥) رواه الشيخان.

هذا وقد نقل ابن بطال أنه اتفق الجميع على المنع من القصد إلى قتل النساء والولدان، أما النساء فلضعفهن وأما الولدان فلقصورهم عن فعل الكفار ولما في استبقائهم جميعاً من الانتفاع إما برق أو بالفداء فيمن يجوز أن يُفادى به⁽¹⁾.

ثالثاً: مختصر لأحداث الغزوة:

عز الرسول ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، كان هذا في السنة التاسعة من الهجرة، وكان ذلك في زمان عُسرة من الناس، وجدب من البلاد، وحين طابتِ الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، فجلَّى للناس أمرها ودعا من حوله من أحياء الأعراب للخروج فاجتمع معه بَشَر كثير، وتتخلّف آخرون بغير عذر من المنافقين والمقصّرين فلامهم الله سبحانه أشد اللوم، وبعثر خزاياهم أشد البعثرة، ولأن المسير طويل والحر شديد، والحال رقيق، والظهر قليل، فلم يكن هناك بد من استحثاث الموسرين على تجهيز الجيش، فأتى الصِّدِّيق بكل ماله وأتى الفاروق بشطر ماله، وأتى عثمان بمال كثير

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٢٦١ – ٢٦٢).

وجَهَّزَ ثلاثمائة بعير للجيش، أيضاً أنفق العباس، وطلحة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، ومع هذا كله فقد ضاق الظهر بالمسلمين فجاء سبعة نفر للرسول ﷺ يريدون منه أن يحملهم، لبعُد الشُّقة فاعتذر ﷺ فتولوا مغرورقة أعينهم بالدموع فلما اطّلع الله على صدق نواياهم، رزقهم المطايا التي تُقلهم، فخرجوا معه ﷺ، وكان ﷺ قد طلب من بعض من تظاهر بالإسلام الخروج للغزاة فامتنع مُظهراً الخير مريداً التخذيل والفرار قائلاً: اذن لي ولا تفتني فليس لي صَبرٌ على النساء اللواتي وصفهن كيت وكيت، فقبل النبي ﷺ ذلك، بل وتغاضى عمن سخروا من نفقات المؤمنين الصادقين في تجهيز الجيش، وتغاضى كذلك عن المثبِّطين والمخذَّلين على ما سيأتي تفصيله.

بعد ذلك خرج ﷺ بجيشه الجرار ماخراً عباب الفيافي والقفار وكان العَشَرة من الرجال يتعاقبون على بعير واحد، وكان زادهم تمر مسوَّس، ونخالة شعير سنخة، ومع ذلك مضوا بيقين وصدق ما شهد التاريخ مثلهما، ولم يزل الجيش يغد السير بين الظمأ والمخمصة والنَّصب حتى وصل تبوكاً، فلم يجد للروم أثراً على حد قول القائل:

قوم إذا الخطب دوى في مرابعهم
وسار يقذف أشداقه ناراً
قالوا له والردى تغلي مراجِلُه
إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيت إعصاراً

ولكن ثبتتْ هيبة الإسلام في الأرض، على الرغم من عدم حصول القتال فلم يلبث أمراء قبائل جنوب الشام أن جاؤوا للرسول ص معاهدين ومذعنين لدفع الجزية وبذلك أمَّن المسلمون حدود الجزيرة الشمالية، وأرهبوا كل رِعْشيشٍ يحاول النيل من الدولة الفتية. ثم قَفَلَ الجيش عائداً إلى ديار الهجرة الطيبة⁽¹⁾ وقبل وصوله ﷺ إلى المدينة أوحى الله تعالى إلى نبيه عن مسجد الضرار الذي بناه المنافقون كفراً وتفريقاً للجماعة عن مسجد قباء، وضراراً لأنهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء، فأمر ﷺ بتحريق مسجد الضرار وعُصم ﷺ من القيام والصلاة فيه، وعلى مشارف المدينة استقبل النساء والصبيان والولائد جيش النُّصرة قائلين:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

---

(١) بعد أن مكث هناك معسكراً بضعة عشر يوماً، انظر من معين السيرة ٤٣٨. المعسكر في تبوك.

واتجه ﷺ إلى المسجد وأتى المعُذِّرون والمتخلفون فطفقوا يعتذرون ويحلفون فقبل منهم ﷺ علانيتهم واستغفر لهم وَوَكَلَ سرائرهم إلى الله، وأبى الثلاثة الأطهار الأبرار أن يكذبوا على حبيبهم محمد ﷺ خوفاً من مَثُلاتِ الله جل وعز، فعاتبهم وأمر بمقاطعتهم حتى ضاقت عليهم الأرض برَحَبها ثم ضاقت الأمور وضاقت، فلما استحكمت حلقاتها فرجتْ ونزلتْ توبتهم ومغفرة الله لهم في قرآنٍ يتلى إلى أن يرفع من الصدور والسطور(١).

---

(١) انظر البداية والنهاية (٥/ ٣-١٣) السيرة النبوية للندوي ٣٠٧-٣٢٠، سيرة ابن هشام ٤/ ١٥٥ – ١٦٦، التاريخ الإسلام (٣/ ٣٥٣-٣٦٣) وغيرها من كتب السير والتاريخ.

الفصل الثاني

مواقف المؤمنين

إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني بل فهو بالبذل والجود والعطاء، وهو بحث عن الكمال لا يعرف الكلال، ولا تقبل من امرئ دعوة إيمانه حتى يثبت ذلك بالبراهين القاطعات:

لا ترض من رجلٍ حلاوةَ قوله *** حتى يُصدّق ما يقولُ فعال

وإليك أيها الحبيب نماذج من أفعال الرعيل الأول تُثبت صدق إيمانهم، ولا غرو، فهم الذين سطروا أسماءهم في سِفْر الخلود بحروف من نور يوم أن واطأت أفعالهم أقوالهم.

أولاً: موقف المؤمنين من الإنفاق لتجهيز جيش العسرة:

عن حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: (لما أُمرنا بالصدقة كنا نتحامل – أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة – فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه .... الحديث)(١).

---

(١) رواه الشيخان.

ولك أن تعجب من هذه النفوس المؤمنة التي تسلك كل السبل من أجل الحصول على المال وإن كان يسيراً من أجل بذله في سبيل الله فكم من عمل يسير عظمته النية، وكم من عمل عظيم صَغَّرته الطوية.

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث أنس وغيره أن عبد الرحمن بن عوف أحضر ثمانية آلاف درهم، قال ابن حجر: وهذا أصح الطرق فيه(١).

وأخرج ابن جرير الطبري وغيره أن رجلاً أتى بناقة حسنة جميلة فألقى بخطامها عند رسول الله ﷺ(٢).

وعن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ص فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: « ما ضَرَ ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مراراً »(٣).

* * * * *

---

(١) فتح الباري (٨/ ٤٢٣).

(٢) جامع البيان (١٤/ ٣٩٨ الأثر ١٧٠١٥).

(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه قال الأرنؤوط: إسناده حسن/ انظر حاشية شرح السنة (١٤/ ١١٠).

ثانياً: موقف المؤمنين البكائين:

قال تبارك وتقدس: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾(١)

هذه صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه، فبمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثلها عزّت كلمته فلننظر أين نحن من هؤلاء؟ ولننظر أين رُوحَنَا من تلك العُصبة ثم لنطلب النصرَ والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر(٢).

يروي لنا هذه الصورة أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فيقول: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أساله الحملان لهم إلى تبوك، فقلت يا رسول الله ﷺ أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم! فقال: « والله لا أحملكم على شيء » ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزيناً من منع النبي ﷺ وأخبرت أصحابي، فلم ألبث إلا سويعةً إذ سمعت بلالاً ينادي أي عبد الله بن قيس فأجبته فقال: أجب رسول الله يدعوك فلما أتيته قال: « خذ هذين القرينين لستةِ أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٢.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٨٥ – ١٦٨٦) بتصرف.

فانطلِق بهن إلى أصحابك » فقال: إن الله أو قال إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فأركبوهن فانطلقت إليهم بهن .. الحديث⁽¹⁾.

فانظر إلى حال تلك النخبة كيف حزنوا وفاضت أعينهم بالدموع لما لم يجدوا سبيلاً إلى المعركة على الرغم من أن الله عذرهم ولم يجعل عليهم سبيلاً وأَعُجَبْ ممن تمكن من الغزو وامتلك الظهر ولكن ثبطه الله فجلس مسروراً يحسب أنه على شيء.

إذا اشتبهت دموع في خدود *** تبيّن من بكى ممن تباكى
فأما من بكى فيذوب وَجْداً *** لأنَّ به من التقوى حراكا

*****

ثالثاً: أناس تلكئوا ثم لحقوا بالركب:

لي بخافٍ أن كل بداية صعبة، وصعوبة البدايات تختلف باختلاف الناس، وأَمَامَنَا فئة مؤمنة صَعُبَت عليها البداية، بداية الانطلاق مع جيش العُسرة، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها وعرفت خطأها فركضت إلى الله ولحقت بالركب ولسان حالها يقول:

ليس عيباً أن نرى أخطاءنا *** عيبنا الأكبرَ أن نبقى نُعاب

---

(١) انظر فتح الباري (٨/ ١٣٨).

قال ابن هشام⁽¹⁾: أبو خيثمة وعمير بن وهب يلحقان بالرسول ﷺ ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له قد أعدتا عريشين لهما في حائطه، وبرَّدتا له فيه ماءً، وهيأتا له طعاماً فقال لما تذكّر أن أحبابه هناك يعانون من شَظَفَ المسير قال: والله لا أدخل عريش إحداكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا لي زاداً فَفَعَلَتَا، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ.

فأدرك عمير بن وهب في الطريق يطلب رسول الله ص فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلَّفَ عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل في تبوك قال الناس: هذا ركب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: « كن أبا خيثمة » فقالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أولى لك – أي الويل لك – يا ابا خيثمة » ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له⁽²⁾.

---

(١) السيرة النبوية (٤/ ١٦٠ – ١٦١).

(٢) مختصر سيرة الرسول ٢٣٢، في ظلال القرآن (٣/ ١٧٢٥).

وهذا هو الصحابي الجليل: أبو ذر تخلف وأبطأ به بعيره، فأخذ متاعه فحمله على ظهره – رضي الله عنه – ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازل له، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله: إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر، فلما تأمل القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله: « رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده ويبعث وحده »(١).

*****

رابعاً: موقف الثلاثة الذين خلفوا:

كعب بن مالك وصاحباه يتخلفون عن ركب رسول الله ﷺ في ساعة العسرة فقد أدركهم الضعف البشري الذي يُحبب إليهم الظل والراحة فيؤثرونها على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب.

---

(١) مختصر سيرة الرسول ٢٣٣، في ظلال القرآن (٣/ ١٧٢٥) من معين السيرة، الصفحات: ٤٣٧ – ٤٣٨.

إنها ثقلة الأرض، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار، التي قد تتسبب وتلقي بالإنسان في هُوة سحيقة من الندم والألم والصراع المحتدم.

كان كعب ومُرارة وهلال من السابقين الأولين، ولم يكن التخلف من عادتهم ولكنها الثقلة والشغف، ولذلك يقول كعب: فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً ولم يزل يتمادى بي حتى فَصَلُوا ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج الرسول ﷺ فطفت أحزنني ألا أجدَ إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذَرَ الله من الضعفاء ... فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قفل عائداً حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أُظَّلَ زاح عني الباطل فأجمعتُ صِدقَهُ فلما قدم جاء المخلفون يعتذرون فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله، فقال لي ما خُلِفك؟ فقلت: والله ما كنتُ قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك – وامتحن الله إيمانه وصاحبيه امتحاناً قَلَّ نظيره في تاريخ المجتمعات البشرية التي تقوم على أساس الإيمان والعقيدة والحب والعاطفة ذلك أن الرسول ﷺ نَهَى عن كلامهم، فاجتنبهم الناسُ حتى

تنكرت في نفوسهم الأرض فما هي التي يعرفونها ولبثوا على ذلك خمسين ليلة، وكل ذلك لم يؤثر في رابطة الحب والولاء التي كانت تربطهم بالقائد الأول حيث يقول كعب:

آتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسة بعد الصلاة، وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أو لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل عليَّ وإذا التفت نحوه أعرض عني.

فتنكرت له الدنيا وأعرض عنه من كانت له دالة عليه، حتى أقرب قريب له وتعدّى الأمر ذلك إلى أزواج هؤلاء الثلاثة فأمروا أن يعتزلوهن واستكان قبل ذلك مُرارة وهلال وجلسا يبكيان في بيتهما وجاءت أدق مرحلة من مراحل امتحان الحب والوفاء حيث جاء رسول الله ملك غسان بخطاب لكعب وفيه: (بلغني أن صاحبكَ قد جفاك ولم يجعلكَ اللهُ بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا) فكانت تلك الثلاثة الأثافي إلا أن الغيرة ثارت والحنان هاج فولّى وجهه شطر التنور وسجر الخطاب.

ولما تم ما أراده الله من تمحيص النفر الثلاثة وتخليد ذكرهم في القرآن وإقامة البراهين على قوة إيمانهم وحسن إسلامهم وقد اعتُصروا

كل الاعتصار، أفرج عنهم وأنزل توبتهم من فوق سبع سموات ولم يُفردهم بالتوبة لئلا يستوحشوا بل مَهَّد لتوبتهم بالتوبة على سيد الأنبياء والمهاجرين والأنصار تكريماً لهم وجبراً لخواطرهم ورفعاً لمكانتهم(١). فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾(٢).

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٤٣-١٤٥) باقتباس، السيرة النبوية للندوي ص ٢١٤-٢١٨ بتصرف، الظلال (٣/ ١٧٣٢-١٧٣٣)، وانظر سيرة ابن هشام (٤/ ١٧٣-١٧٩) زاد المعاد (٣/ ٥٥٢).

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١١٧، ١١٨.

الفصل الثالث

تعريف النفاق

النفاق مأخوذ من نافِقاء اليربوع وهو باب جحره، فاليربوع يحفر له جحراً ثم يسد بابه بترابه ويسمى هذا المدخل القاصعاء، ثم يحفر له مخرجاً آخر حتى إذا بقي من التراب قشرة رقيقة تركها حتى لا يُعرف مكان هذا المخرج، ويسمى هذا المخرج النافقاء.

وقيل إنه مأخوذ من النفق وهو السرب في الأرض الذي يستتر فيه، سُمِّي المنافق بذلك لأن المنافق يستر كفره.

وأكثر علماء اللغة على القول الأول، وهو الراجح لأن النفق ليس فيه إظهار شيء وإبطان شيء آخر كما هو الحال في النفاق وكونه مأخوذاً من النافقاء باعتبار أن المنافق يُظهر خلاف ما يُضمر أقرب منه كونه مأخوذاً من النفق باعتبار أنه يخرج من غير الوجه الذي دخل فيه لأن الذي يتحقق فيه الشبه الكامل بين النافقاء والنفاق هو إظهار شيء

وإخفاء شيء آخر إضافة إلى المنافق لم يدخل في الإسلام دخولاً حقيقياً حتى يخرج منه(١).

هذا في اللغة، أما غب الاصطلاح فهو: إظهار الإسلام وإبطان الكفر(٢).

لماذا لم يظهر في مكة وظهر في المدينة؟

لو تساءلنا عن بواعث النفاق لوجدناها أموراً عدة، منها:

١- اعتقاد الكفر وكراهية الإسلام.

٢- وجود المنافق تحت سيطرة حكومة إسلامية.

٣- ضعفه عن مواجهة هذه الحكومة بعقيدته التي يضمرها.

وفي مكة لم تكن سيطرة للحكومة الإسلامية بل بالأصح لم تكن هناك حكومة إسلامية فيحتاج المخالف الضعيف إلى معاداتها، ولكن لما تكونت هذه الحكومة في المدينة وعجز ضعاف النفوس عن التصريح بمعتقداتهم آثروا أن يسلكوا سبيلاً في ظلال تلك الحكومة القوية ألا

---

(١) لسان العرب (٦/ ٤٥٠٨-٤٥٠٩) المعجم الوسيط (٢/ ٩٤٢) المنافقون في القرآن الكريم ص ١٣ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٧) المنافقون في القرآن الكريم ص ١٤، اللسان (٦/ ٤٥٠٩).

وهو سبيل النفاق. ريثما يتيسر لهم القضاء على الإسلام أو التصريح بكفرهم وكراهيتهم أو التخلص من هيمنة هذه الحكومة القوية⁽١⁾.

متى ظهر النفاق

ظهر النفاق لما ظهرت للإسلام هيمنة وسيطرة على مجريات الساحة ولاسيما بعد معركة بدر.

موقفه ﷺ عموماً:

تميز موقفه ﷺ مع المنافقين عموماً بالمداراة والقول اللين والحذر من مكرهم، والقبول لأعذارهم ونحو ذلك من المواقف فمن القول اللين قوله لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾⁽٢⁾ لما قال السفهاء ومنهم المنافقين: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾⁽٣⁾.

---

(١) انظر لزاماً المنافقون في القرآن الكريم ص ١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

(٣) المصدر السابق.

ومن الإعراض والمداراة أمر الله تعالى له في آية: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾(١). وموقفه من عبد الله بن أُبيّ بن سلول عندما قال: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾(٢).

ومن قبول الأعذار ما حصل في غزوة تبوك عندما جاء المخلفون يعتذرون له عن التخلف فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله واستغفر لهم(٣).

ومن الحذر من مكرهم قوله تبارك وتقدس لنبيه ﷺ عن المنافقين: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾(٤).

*****

أولاً: موقف المنافقين من الإنفاق في تجهيز جيش العسرة:

روى الشيخان من حديث أبي مسعود البدري أنه قال: لما أُمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٣.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨

(٣) كما تقدم ذكره.

(٤) سورة المنافقون، الآية: ٤.

منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل الآخر هذا إلا رئاء(١).

وهذا عبد الرحمن بن عوف لما أتى ببعض ماله قالوا: والله لا يعطي عبد الرحمن عطيته إلا رياء(٢).

فأنزل تعالى براءة الأصحاب الأطهار ونعى على هؤلاء المنافقين وسخر منهم كما سخروا من المؤمنين لأنهم لم يسلم من تجريحهم صاحب الكثير لأنه يبذل كثيراً ولا صاحب القليل لأنه يبذل القليل!!. ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضي الأيدي شحيحي الأنفس لا ينفقون إلا رياء، ولا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير(٣).

وحدثنا تعالى وتبارك عن صنف آخر من المنافقين وهم الذين يتخذون نفقاتهم غرامة وخسارة، وينتظر أن تقع بالمؤمنين الحوادث والآفات، ولم يعلموا أنها منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم(٤) قال

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) الطبري (١٤/ ٣٨٣ الأثر ١٧٠٠٤) وتفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢٧).

(٣) الظلال (٣/ ١٦٨١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤١).

تعالى وتنزه عنهم: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾(١).

*****

ثانياً: موقفهم من المشاركة في الغزو

كان موقف المنافقين سيئاً للغاية حيث خذَّلوا وثبَّطوا الجماعة المؤمنة حيث كانوا يقولون لا تنفروا في الحر ونحوها من العبارات المخذلة، وقال أحد زعمائهم ائذن لي ولا تفتني.

قال ابن هشام: وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً برسول الله ﷺ(٢) فهؤلاء هم نموذج لضعف الهمة وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، ويُؤثِرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم فيتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات، لذلك رد الله عليهم متهكماً(٣): ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾(٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٨.

(٢) السيرة النبوية (٤/ ١٥٦).

(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٨٢).

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٨١/ ٨٢.

وكذلك الجد بن قيس لما قال له ص هل لك في جلاد بني الأصفر؟ فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر؟. ألا فليعلموا أنهم سقطوا وتَرَدَّوا بهذا القول في هاوية الفتنة بأوسع معانيها لا في شيء آخر من شبهاتها أو مشابهاتها من حيث يزعمون اتقاء التعرض لشبهة نوع من أنواعها، وهو الإثم بالنظر إلى جمال نساء الروم(١).

وحُقَّ لقائِل أن يقول بعد أن يرى أفعالهم المشينة:

فَلَوْ كان منه الخير إذ كان شَرُّه
عتيداً ضَرَبْتُ الخيرَ يوماً معَ الشَّر
ولو كان لا خيرٌ ولا شرك عندَه
رضيت لعَمري بالكفافِ مَعَ الأجر
ولكنه شر ولا خير عندَه
وليسَ على شرِ إذا طالَ من صبر

*****

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١٠/ ٤٧٧).

الفصل الرابع

الآثار التي ترتبت على هذه الغزوة

أولاً: آثارها على المؤمنين(١)

١ - ظهور الإستراتيجية العسكرية المتفوقة للقائد الكبير محمد ص وذلك من جوانب عدة:

أ- تصريحه بالغزوة التي يقصدها للمسلمين، ليتأهبوا كل الأهبة فالشقة بعيدة، والحالة شديدة.

ب- عندما مَرَّ بديار ثمود لم ينس ﷺ أن يُرقق الأرواح لتستشمر نعمة الإيمان بتذكيرهم بمصارع قوم صالح لما عصوا وتعنتوا على نبيهم عليه الصلاة والسلام.

ج- اجتيازه للمراحل ليلاً تخلصاً من الحر الشديد.

---

(١) الرسول القائد (٤١٧ – ٤١٨) القبائل العربية في بلاد الشام (١٣٢ – ١٤٥).

د- بقاء الرسول ﷺ بتبوك بعد انسحاب جيش الروم لإرهاب العدو أكثر وأكثر وإرعابهم، ولرفع معنويات المسلمين أكثر وأكثر وإعزازهم.

٢- إظهار قوة المسلمين للعرب المتنصرة والمسلمين لأن الغزوة واكبت إستراتيجية إخضاع الشام لاسيما وأنها تمتاز بموقع مهم ولأهميتها دينياً حيث ورد في فضلها أحاديث، ولصلات الوشاجة بين قبائل الجزيرة وقبائل الشام، ولغناها بالثروات الاقتصادية بشكل عام.

٣- إقامة علاقات وصلح مع قبائل جنوب الشام التي كانت مقدمات لإسلام هذه القبائل بل ولفتح الشام كله، فتقاطرت الوفود في عام سمي عام الوفود بعد غزوة تبوك مباشرة فجاء وفد بني عامر بن الطفيل وإربد بن قيس وأقبل وفد بني سعد بن بكر بإمرة ضمام ابن ثعلبة، وأقبل وفد بني عبد القيس بإمرة الجارود وغيرها من الوفود(١).

٤- تأمين طرق المواصلات للجيش المسلم.

٥- تسوية الأوضاع ما بين المدينة والشام لضمان عدم عِداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز للدولة الإسلامية عن طريق ربط

---

(١) التاريخ الإسلامي ص ٣٦٤-٣٦٦.

سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكُتُبِ الأمان إن لم يكونوا اعتنقوا الإسلام.

٦- انتصار الإيمان والرغبات الصادقة على كل العواتق والعقبات النفسية والاقتصادية(١).

٧- لفت نظر المسلمين إلى شمولية هذا الدين لكل الأجناس والناس.

*****

ثانياً: آثارها على المنافقين:

١- هتك أستارهم وظهور عَوارهم، وإبراز صفاتهم المشينة لتبقى للأجيال المتعاقبة لتحذر منها وذلك مثل:

أ- استغلال الفرص المناسبة للطعن في دعاة الإسلام وتشويه سمعتهم.

ب- استغلال الفرص لإثارة الشبهات حول الإسلام ليزعزعوا إيمان المؤمنين.

ج- لا يَهُمُهُمْ إلا مصالحهم الذاتية والنجاة من كل مكروه.

---

(١) من معين السيرة ص ٤٤٦.

د- يأمرون بالمنكر وينهون علن المعروف.

هـ- يقبضون أيديهم ويلمزون المؤمنين ويسخرون منهم.

وعلى حد عبارة صالح الشامي: إن المنافقين ليسوا عناصر سلبية فحسب! ولكنهم إيجابيون في سلبيتهم، فهم لا يساهمون في شيء بل يثبطون الآخرين عن كل شيء(١).

*****

ثالثاً: آثارها على الروم:

١-لم تقم للروم قائمة بعد هذه الغزوة إذا أنها تعد الضربة الثانية بعد الضربة الأولى في غزوة مؤتة علاوة على أن انسحاب جيش الروم يعد هزيمة وانخناساً من قوة كانت تُعد ضاربةّ وكبرى.

٢- أيقن الفرس وغيرهم من الأعداء الألداء بقوة هذا الدين، وأنه سيستمر في جريانه على ظهر البسيطة دون توقف بل بتوقد.

*****

---

(١) التاريخ الإسلامي ص ٣٦٤-٣٦٦.

الفصل الخامس

دروس وعبر من الآيات

مما ينبغي التنبه له أن سورة التوبة تحدثت بإسهاب عن هذه المعركة مما لم يحدث من قبل ولا من بعد بهذا الزخم الكبير من الآيات الكريمات وهذا أكبر دليل على أهمية هذه الغزاة غزاةِ العُسيَرة، وعلى ما واكبها من أحداث.

* قال تبارك وتمجد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾(١).

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٣٨ – ٤٠.

هداية الآيات:

حث وعتاب واستحثاث للمؤمنين للنفير للجهاد لأن هذا مقتضى الإيمان واليقين والتخلص من قيود وثُقلة الأرض، وعدم الرضا بمتاع الدنيا الزائل. فهذا أيضاً هو مقتضى العقل، فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جَزَلَ رأيه ولا من عُدَّ في أولي الألباب.

ومن لم يفعل فما أطاع الله، وما نصرَ الدِّينَ ولا أعانَ إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم، ويمحق دينهم، فحقيقٌ على من تخلف أن يُعذبَ عذاباً أليماً، وألا يقامَ له وزن، فإن الاستعلاء على ثُقلة الأرض وعلى ضعف الناس إثبات للوجود الإنساني الكريم فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة.

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه على نصرة الله ورسوله ﷺ بلا عون منهم ولا ولاء فالنصر من عند الله يؤتيه من يشاء⁽¹⁾.

---

(١) الظلال (٣/ ١٦٥٥ – ١٦٥٦) تفسير كلام المنان (٣/ ٢٣٢ – ٢٣٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٩٠ – ٩٣).

* قال تبارك وتمجد: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾(١).

هداية الآيات:

من هذه الآية وما بعدها يبدأ الحديث عن طوائفَ ضَعُفَتْ وأضعفت الصف وآثروا حب السلامة على الدار الآخرة.

حدثنا تبارك وتعالى عن صفاتهم المشينة العديدة، ومنها: أن الأمر لو كان أمر عرض قريب من الأعراض الدانية، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الضعيفة والقلوب الهزيلة، بل ومع الحَلِف الكاذب المفضي إلى هلاكهم حقيقة وإن كان منجاة في هذه الدنيا.

ولا غرو فالمؤمن بالله واليوم الآخر لا يتلكأ في الاستجابة للنداء والهيعة اتباعاً لأمره تعالى وابتغاءً لمرضاته، فإن الطريق إلى الله واضحة لا تخطئ ولا يبقى في ريب مترددٍ إلا المرضى.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٢.

* ثم يقول تعالى عنهم: ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾(١). لماذا لأنهم لو خرجوا فيكم يا معشر المؤمنين المجاهدين ما زادوكم إلا خبالا أي نقصاً، ولأوضعوا خلالكم ولَسَعَوا في الفتنة وفرقوا بين جماعتكم المتآلفة، يبغونكم الفتنة أي حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم لما تشبعت قلوبهم بالنفاق والضلال، والدليل على ذلكم قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠﴾(٢).

أي بمصيبتك وبعد مشاركتهم إياك يا محمد، لأن نفس المعصوم ﷺ قد تحزن، لذلك قال تعالى مسلياً إياه آمراً أن يقول لهم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾(٣). والتوكل هو الاعتماد، والمولى هو الناصر، وما يصيبنا هو ما كُتب لنا في اللوح المحفوظ، فموتوا بغيظكم أيها المنافقون، واعلموا أنكم تنتظرون بنا ما

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٠

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥١.

تظنونه سوءً، وهو غايةُ ما نتمناه، إذ إنَّ السوءَ عندكم هو النصرُ - أو الشهادة، ولكننا نحن ننتظر أن يصيبكم الله بعذاب سماوي لا سببَ لنا فيه أو بأيدينا بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم شر تقتيل، وهذا هو قوله جل وعز: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾(١).

وذكر تعالى جانب الإنفاق الذي كانوا غاية في السلبية فيه، فقال تبارك وتقدس: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾(٢). حيث فضح الله أستارهم وقرر القواعد التي امتاز بها هذا الصنف المرذول(٣).

* قال تبارك وتمجد: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٣.

(٣) تفسير كلام المنان (٣/ ٢٤٣ – ٢٤٧) الظلال (٣/ ١٦٦٢ – ١٦٦٥).

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

هداية الآيات:

يقول تعالى لنبيه: من المنافقين يا محمد من يعيب عدالتك في توزيع الصدقات، مدّعياً أنك تحابي في قسمتها، وهم لا يقولون ذلك غضباً للعدل، ولا غَيْرةً على الدِّين، إنما يقولونه لهم لحساب ذواتهم وأطماعهم ومصالحهم الشخصية، وياليتهم علموا أنهم لو رضوا بما قسمتَ لهم وقَنعَتْ نفوسهم ورجَوا مِنَنَ الله وآلاءه، وتذكروا يوم المعاد لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن أضلّهم الله بكفرهم فلا يفقهون شناً⁽¹⁾.

والعجيب أن إيذاءهم لصاحب الرسالة الخالدة لا يقف عند حد، بل هذا فريق منهم يقولون عنه: هو أُذُن، أي لا يبالون بما يقولون من الأذيّة للنبي ﷺ ويقولون إذا بلغه عنا بعض ذلك جئنا نعتذر إليه فيقبل مَنَّا لأنهُ يقبل كل شيء يقال له لا يميز بين الصادق والكاذب، وما درى المساكين أنه يعرض عنهم ويقبل أعذارهم إعراضاً عنهم لخبث طواياهم، ولأنه جُبل على التسامح والعفو ودفع السيئة بالحسنة فصلى الله عليه وسلم عدد ما ذكره الذاكرون وعدد ما غفل عنه الغافلون⁽²⁾.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٦٧).

(٢) تفسير كلام المنان (٣/ ٣٥٥ - ٣٥٦).

قال تبارك وتمجد: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤ ﴾(١).

هداية الآيات:

يُثير ويُبعثر ويُفضح تبارك وتعالى ما أكنَّته تلك الصدور الكالحة السقيمة، فما زال الله يقول: ومنهم، ومنهم، ويذكر أوصافهم إلا أنه لم يعين أشخاصَهم لفائدتين:

١- أن الله سِتِّير يحب السَّتر على عباده.

٢- أن الذمَّ على من اتصفَ بذلك الوصف إلا أنه لم يفضح بل لم يعين أشخاصَهم وغيرهم إلى يوم القيامة.

فيقول تعالى عن حالهم ما تقدم قبل قليل، بحيث تصبح أسرارهم وفضائحهم مكشوفة حتى تكون علانية لعباده وليكونوا عبرة للمعتبرين.

فاستمِرُّوا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية فالله مخرج ما تحذرون، وقد وفى تعالى بوعده فأنزل تعالى هذه السورة فهتك أستارهم، فمن فضائحهم كرههم لهذه الشريعة الغراء، وكفرهم بها،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

واستهزائهم بالله وبرسوله وبالمؤمنين، وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف على كل حال أسلافهم الذين استمتعوا بنصيبهم الفاني. ولذلك أمر تعالى نبيه بجهاد الكفار والمنافقين بأن يُغلظ عليهم، ثم بين تعالى أن مأواهم جهنم وبئس المصير(١).

* قال تبارك وتقدس: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾(٢).

هداية الآيات:

وهذا أيضاً من مخازي المنافقين فكانوا – قبحهم الله – لا يدعون شيئاً من الأمور يرون لهم مقالاً فيها إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلمزوا المكثرَ بأنَّ قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقلّ الفقير إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل تعالى هذه الآية فاضحاً لهم وساخراً منهم. إلا أنه هول جسيم وخطب عظيم(٣).

---

(١) تفسير كلام المنان (٣/ ٢٥٨) الظلال (١٦٧٣).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

(٣) تفسير كلام المنان (٣/ ٢٧١) الظلال (٣/ ١٦٨١).

❁ قال تبارك وتقدس: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ ﴾(١).

هداية الآيات:

وهذا قَدر زائد على مجرد التخلف، فإن التخلف محرم، وزيادة رضاً بفعل المعصية وتبجح به، فازداد الأمر سوءً على سوء.

إنها المهانة والإخلاد إلى الأرض، والتحلل من التكاليف، فقارنْ بين حالهم وحال أولئك المؤمنين الذين تخلفوا مبدئياً بعذر فتقطعت قلوبهم حزناً وفاضت عيونهم دمعاً، إنه طراز آخر، وعملة نادرة يقول الناظر إليها:

مَنْ لي بمثل سيرك المدللْ * تمشي رويداً وتجيء في الأولْ**

إن الذي لا يكابدُ عقبات الكفاح، ولا يعالج الشدائد ويلتذ بالجراح لَطَرِيُ الإرادة، بائسُ المصير، مِثْلَ هذا الصنف المسكين الذي آثر الراحة المسترخية، والإخلاد البليد فأين هم؟ وكيف بهم في حر نار

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٨١،٨٢.

جهنم وهي أشدُ حراً من ذلك المناخ، وأطولُ أمداً من شُقَّة الطريق إلى تبوك؟

إذن فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً لأن الجزاء من جنس العمل، على أن هذا الصنف ليس بأهلِ أن ينال شرف الجهاد على الأعداء لأنه عدو في ذاته، فإن رجعت إلهم يا محمد ص فقل لهم: لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أولَ مرة فاقعدوا مع الخالفين لأن الصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يَصْمُدُ لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيخذلون معهم من لم يكن على شاكلتهم، كما ورد في الآية التالية للآية المذكورة في الأول(١).

قال تبارك وتنزه: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ (٨٦) رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ (٨٧) لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٨٩)﴾(٢).

---

(١) الظلال (٣/ ١٦٨٢ – ١٦٨٣)، تفسير كلام المنان (٣/ ٢٧٤ – ٢٧٥).

(١) سورة التوبة، الآيات: ٨٦ – ٨٩.

هداية الآيات:

صورتان وطبيعتان، صورة وطبيعةُ الإيمان والقوة. وصورة النفاق والضعف وطبيعته..

إذا أُنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الغِنَى والأموال الذين لا عذر لهم لا ليُقدموا ويتقدموا بل ليخذلوا ويتكاسلوا ويطلبوا القعود مع النساء دون استشعار للذلة والهوان. ولا عجب فالقلوب مطبوع عليها ومختوم فهي لا تفقه مصالحها.

وانظر إلى الطراز المتألق في شموخ، إلى الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم بلا تكاسل ولا انخذال ونهضوا بتكاليف العقيدة وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود فنالوها في الدنيا ونالوا السعادة السرمدية لَّما آثروها على السعادة الأمدية، جنات تلك هي أوصافها(١).

موقف البكائين:

يصور لنا مدى الرغبة الحقة في إراقة الدماء من أجل إعلاء كلمة الله، فهم لا يجدون الرواحل التي تحملهم إلى أرض المعركة فإذا حُرموا

---

(١) الظلال (٣/ ١٦٨٤ – ١٦٨٥)، تفسير كلام المنان (٣/ ٢٧٨ – ٢٧٩).

شرف الجهاد تألمت نفوسهم حتى إنّ عيونهم لتفيض دموعاً لأنهم لا يجدون ما ينفقون.

فهؤلاء وأمثالهم لا حرج عليهم وإذا سقط الحرج عنهم عاد الأمر إلى أصله وهو أن من نوى الخير واقترن بنيته الجازمة سعى في ما يقدر عليه ثم لم يقدر فإنه يُنزَّل منزلة الفاعل التام(١).

* قال الله تعالى وتقدس: ﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾(٢).

هداية الآيات:

إنباء من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين الخُلَّص بما سيكون من أمر هؤلاءِ المنافقين من الاعتذار والحلف الكاذب لِيكونَ جواب

---

(١) الظلال (٣/ ١٦٨٥)، تفسير كلام المنان (٣/ ٢٨٢) على تفصيل في مسألة العجز، انظره في المنتقى من فرائد الفوائد للشيخ محمد بن صالح العثيمين، ص١٣.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٩٤ – ٩٦.

المؤمنين، وفّروا معاذيركم، لن نصدقكم، فَصَدِقُ القِيْلِ كشف لنا حقيقتكم، وقصَّ علينا دوافع مخازيكم، فتجلّت لنا ولم تَعد مستورةً، فاعملوا في الدنيا لأن العمل هو ميزان الصدق، أما مجرد الأقوال فلا تدل على شيء ثم أنّ مردكم إلى الله فينبئكم بما كنتم تعملون من خير وشر فيجازيكم بعدله أو بفضله(١).

أما الصنف الذي سيحلف لكيلا توبخوهم أو لا تقتلوهم، فإنهم قَذَرٌ ورِجسٌ بأرواحهم فأعرضوا عنهم واشمئزوا من نتنهم فإنَّ مأواهم جهنم جزاء كسبهم أعمالهم الخبيثة في هذه الدار، وحتى لو رضيتم عنهم فإنَّ الله لا يرضى عنهم ما داموا فاسقين خارجين من ربقة الولاء الصادق والإذعان الواثق(٢).

ثم تحدث تعالى عن الأعراب وهم سكان البوادي وأخبر بأنهم أشدُّ كفراً ونفاقاً من الحاضرة لأسباب عدة:

---

(١) الظلال (٣/ ١٦٩٥)، السعدي (٣/ ٢٨٣ – ٢٨٤).

(٢) الظلال (٣/ ١٦٩٦)، السعدي (٣/ ٢٨٤ – ٢٨٥).

١ - أنهم بعيدون عن فقه الشرائع، وحدود الله فهم جديرون بذلك بخلاف الحاضرة فإنهم أقرب إلى فقه الشرائع والحدود ومعرفتها.

٢- أنهم جفاة الطبع، ولذلك قال ﷺ: « من سكن البادية جفا»[1] وعليه فإن الحاضرة فيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية فهم يجالسون أهل الإيمان ويخالطونهم أكثر من البادية، ولذلك كانوا أحرى للخير من البادية.

٣- أنهم أحرص على الأموال وأشح ولذلك يَعُدَ بعضهم الإنفاق في سبيل الله خسارة ونقصاً بل وينتظر السُّوء يَحِلُّ بالمؤمنين، ولأنَّ الله يجازي كلٌ بعمله، ستكون النتيجة عليهم دائرة السوء.

ولكن رويداً فليس كل الأعراب كذلك بل إن حال بعضهم كما قال الأول:

له خلائق بِيض لا يغيرها
صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

فهذا الصنف يؤمن بالله واليوم الآخر، وعليه فهو سالم من الكفر

---

[1] رواه الثلاثة وصححه الترمذي

والنفاق ويحتسب نفقته يبتغي بها وجه الله ويجعلها وسيلة إلى دعاءِ الرسول ﷺ وتبريكه عليهم، وقال تعالى وتمجد مبيناً لنفع صلوات الرسول ﷺ: ألا إنها قربة لهم إلى الله سيدخلهم الله في رحمته في جملة عبادة الصالحين لأنه غفور رحيم عفو كريم⁽¹⁾.

قال الله جل وعز: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾⁽²⁾.

من هداية الآيتين:

تفضل الله تعالى بالتوبة على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار فغفَر لهم الزلاتِ ورقّاهم إلى أعلى الدرجات بسبب قيامهم بالأعمال الشاقات، ولذا قال: – ويا ليت شعري كيف حال المنافقين والمخلفين في المدينة وهذه الآية تطرقُ أسماعهم – فاستعانوا به تعالى من بعد ما تقلَّبت بعض القلوب واسْتَثْقَلَتْ قطع الدروب، ولكن هو التثبيتُ السماويُ، ثم تاب عليهم أي قبل توبتهم لأنه رءوف بهم.

---

(١) تفسير كلام المنان (٣/ ٢٨٦ – ٢٨٧).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٩.

وتاب الله أيضاً على الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا حزنوا حُزناً عظيماً وضاقت عليهم الأرض على رحبِها وسَعَتِها، وضاقت عليهم أنفسهم – أي أتاهم الضيق والكرب من كل مكان وأغلقت كمل السُبل أمامهم وتيقنوا أنه لا ينجي من الشدائد ولا يلجأ إلا إلى العلي القدير فانقطع تعلقهم بالكون ومن سكنهُ – أذن في توبتهم ووفقهم لها لتقعَ منهم فيتوب عليهم لأنَّه كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلات والنقصان، عظيم الرحمة. فما أعظَم الله وما أكرَم الله وما أجلَّ مِنَنَهُ حيثُ لطف بعباده وثبَّتهم، وسَهَّل لهم العبادة الشاقة، وأعظم لهم مثوبتها، وتاب عليهم(١).

---

(١) تفسير كلام المنان (٣/ ٣٠٨ – ٣١٠)، وانظر فتح القدير (٢/ ٤١٣).

خاتمة المطاف

بعد أن عشنا في هذه الأفياء الإيمانية والرياض الربانية، وعرفنا شيئاً يسيراً عن الجهاد وغاياته، وعرفنا شيئاً يسيراً عن غزوة العُسيرة ورأينا كيف يفعل الإيمان الصادق، حيث يغذ السير بصاحبه إلى الجود بالروح والمال إن ضن البخيل بهما ليحيا الحياة الكريمة إذ لابد لها من ضريبة وبذل. ورأينا بالمقابل أحوال أهل النفاق والشقاق يُلبِّسون، ورأينا آثار الغزوة على المؤمنين وعلى الكافرين والمنافقين والروم، وختمنا المطاف ببعض الدروس والهدايات التي تؤخذ من بعض تلك الآيات البينات.

بعد ذلك كله ...

نسأله تعالى أن يجعلنا من المخلِصين المخلَصين، وأن يعيذنا من أحوال النفاق والمنافقين، وأن يقرَّ أعيننا بنصر الإسلام والمسلمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه/ عمر بن موسى الحافظ

ص.ب: ٥٥٢٢٥ ر.ب: ١١٥٣٤

الرياض (حرسها الله)

فهرس للمواضيع والأبحاث

مقدمة ٥

تمهيد ٧

الجهاد وحكمة مشروعيته ٧

حكم الجهاد ٨

مراحل القتال التشريعية ٩

مكانة الجهاد في الإسلام ٩

أهداف الجهاد وغايته ١١

الفصل الأول: مختصر لأحداث غزوة تبوك ١٧

أولاً: سبب الغزوة ١٧

ثانياً: شواهد على مفاجأة الرسول للأعداء ١٩

ثالثاً: مختصر لأحداث الغزوة ٢٠

الفصل الثاني: موقف المؤمنين ٢٤

أولاً: موقفهم من الإنفاق لتجهيز الجيش ٢٤

ثانياً: موقف البكائين ٢٦

ثالثاً: أناس تلكئوا ثم لحقوا بالركب ٢٧
رابعاً: موقف الثلاثة الذين خلفوا ٢٩
الفصل الثالث: تعريف النفاق ٣٣
متى ظهر النفاق ٣٥
أولاً: موقف المنافقين من الإنفاق لتجهيز الجيش ٣٦
ثانياً موقفهم من المشاركة في الغزوة ٣٨
الفصل الرابع: الآثار التي ترتبت على هذه الغزوة ٤٠
أولاً: آثارها على المؤمنين ٤٠
ثانياً: آثارها على المنافقين ٤٢
ثالثاً: آثارها على الروم ٤٣
الفصل الخامس: دروس وعبر من خلال الآيات ٤٤
الخاتمة (رزقنا الله حسنها) ٦١

إصدارات دار القاسم

هذه عقيدتي

اسم الكتاب	المؤلف
١ - العقيدة الصحيحة وما يضادها	الشيخ/ عبد العزيز بن باز
٢- التحذير من البدع	الشيخ/ عبد العزيز بن باز
٣- إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله	الشيخ/ عبد العزيز بن باز
٤- كشف الشبهات في التوحيد	الإمام/ محمد بن عبد الوهاب
٥- الأصول الثلاثة وأدلتها	الإمام/ محمد بن عبد الوهاب
٦- الولاء والبراء في الإسلام	الشيخ/ عبد الله الجبرين
٧- الوسيلة	الشيخ/ أبو الوفاء محمد درويش
٨- القضاء والقدر	الشيخ/ أبو الوفاء محمد درويش
٩- كتاب التوحيد (لابن رجب)	تحقيق/ صبري سلامة شاهين
١٠- الشفاعة	الشيخ/ أبو الوفاء محمد درويش
١١- لا إله إلا الله، معناها	صالح العليوي
١٢- زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور	شيخ الإسلام ابن تيمية
١٣- هذه هي الصوفية	الشيخ/ عبد الرحمن الوكيل
١٤- مصرع التصوف	الشيخ عبد الرحمن الوكيل
١٥- مصرع خرافة النذر لله والثواب للشيخ	الشيخ/ أبو الوفاء محمد درويش
١٦- فتاوى كبار العلماء في الرد على الصوفية	لهيئة كبار العلماء
١٧- مسألة محيرة	الشيخ/ عبد الله الجبرين

رسائل تربوية

١- الأمانة	الشيخ/ عبد الله بن جبرين
٢- فتن هذا الزمان	الشيخ/ عبد الله بن جبرين
٣- تلك الأيام	خالد الجبرين
٤- وقفات مع سورة التوبة	عمر بن موسى الحافظ
٥- الآداب والأخلاق الشرعية	الشيخ/ عبد الله بن جبرين
٦- للمسافرين والمتزوجين	عبد الرحمن الوهيبي
٧- خطوات نحو الشمس	«فاطمة بنت السراة»

رسائل للدعاة

١- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة (١،٢)	محمد إبراهيم الحمد
٢- الدروس المهمة لعامة الأمة	الشيخ/ عبد العزيز بن باز
٣- صفات الداعية الناجح	صالح العليوي

من أدب الدعوة

١- الميلاد الجديد	إبراهيم الغامدي
٢- الزمن القادم الأول	عبد الملك القاسم
٣- الزمن القادم الثاني	عبد الملك القاسم
٤- الزمن القادم الثالث	عبد الملك القاسم
٥- دموع المآذن	عبد الملك القاسم

أين نحن من هؤلاء

عبد الملك بن محمد القاسم

١ - لحظات ساكنة
٢ - والثمن الجنة
٣- أولئك الأخيار
٤ - اصبر واحتسب
٥- الوقت أنفاس لا تعود
٦ - أحصاه الله ونسوه
٧- الدنيا ظل زائل
٨- الفجر الصادق
٩ - ففيهما فجاهد
١٠ - اللهم سلّم

إلى قاصرات الطرف

١ - أختاه قفي	إبراهيم الغامدي
٢- عثرات الطريق	عبد الملك القاسم
٣- الهاربات إلى الأسواق	عبد الملك القاسم
٤ - حجاب المرأة ولباسها في الصلاة	شيخ الإسلام ابن تيمية
٥- تكريم المرأة في الإسلام	محمد جميل زينو
٦- معالم على طريق العفة	عبد الله الوطبان

يا معشر الشباب

١ - أخي الحبيب قف	إبراهيم الغامدي
٢- صوت ينادي	عبد الملك القاسم
٣- هل من مُشمر	عبد الملك القاسم
٤ - شباب الصحوة	فؤاد الشلهوب
٥- واحات الفتى المسلم	أبو أسامة الحارثي
٦- من رسائل إلى الصديق	أبو الوفاء محمد درويش

فسئلوا أهل الذكر

١- فتاوى النظر والاختلاط والخلوة	لكبار العلماء – جمع/ محمد المسند
٢- فتاوى للعمال والموظفين	جمع/ محمد المسند
٣- الوصية في التعزية والغسل والكفن	الشيخ/ عبد الله الجبرين
٤- فتاوى العلماء في عشرة النساء	لهيئة كبار العلماء
٥- فتاوى العلماء في علاج السحر والمس والجان	لهيئة كبار العلماء
٦- فتاوى مهمة تتعلق بالعقيدة	الشيخ/ عبد العزيز بن باز
٧- تحفة الأخيار	الشيخ/ عبد العزيز بن باز

رسائل التوبة من

١- الغيبة	عبد الملك القاسم
٢- النميمة	عبد الملك القاسم
٣- الكذب	عبد الملك القاسم
٤- الحسد	عبد الملك القاسم
٥- التدخين	حمد الحريقي

كما صدر

١- كيفية صلاة النبي – ﷺ –	الشيخ/ عبد العزيز بن باز
٢- الصلاة (للإمام أحمد)	تحقيق: صبري سلامة
٣- فوائد إيمانية من كتب ابن القيم	منصور العجيان

٤- تحفة الآباء بما ورد في تربية الأبناء	يحي آل شلوان
٥- البيان المطلوب لكبائر الذنوب	الشيخ/ عبد الله آل جار الله
٦- تحريم حلق اللحى	الشيخ/ عبد الرحمن بن قاسم
٧- (١٢٨) مسألة من مسائل الجاهلية	الإمام محمد بن عبد الوهاب
٨- تفسير سور الفاتحة والإخلاص والمعوذتين	الإمام محمد بن عبد الوهاب

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٦هـ

ⓗ دار القاسم للنشر والتوزيع ١٤١٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحافظ، عمر بن موسى
وقفات في سورة التوبة.
... ص، .. سم
ردمك ٩٩٦٠-٧٥٩-٩٥-٤
١- القرآن – مباحث عامة ١- العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٦/٠٦٩٢
رقم الإيداع: ١٦/٠٦٩٢
ردمك: ٩٩٦٠-٧٥٩-٩٥-٤

الصف والمراجعة والإخراج
دار القاسم للنشر
☎ ٤٧٧٥٣١١ فاكس ٤٧٧٤٤٣٢

وقفات

مـــع

سورة التوبة

إعداد

عُمَر بن مُوسَى الحَافِظ

دار القاسم للنشر
الرياض ١١٤٤٢ ص.ب ٦٣٧٣
ت: ٤٧٧٥٣١١ فاكس: ٤٧٧٤٤٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم